صفحات من رواية مخطوطة

امرأة الغائب

مهدي عيسى الصقر*

قبل أن تختلّ العلاقةُ بيننا ـ بسبب عشقي لامرأة الغائب، وملاحظاتِ الأعمى الفظة والجارحة التي تُشعرني بأنّني إنسانٌ وضيع يحاول أن يعتدي على حركة رجلٍ ذهب يدافع عن البلد ـ اعتَدْتُ، عندما ينتابني الضجر، أو ينقطع التيارُ الكهربائيّ من المنطقة، ويتعذّر عليّ مواصلةُ عملي، أن أطلب من الأعمى أن يَحْمل لي شايًا، وأستبقيه واقفًا في باب المحلّ يحدّثني عن حياته. وكان هو يروق له أن يتحدّث عن نفسه ساعاتٍ طويلة. كان يَترك مساعدَه يهتمّ بالزبائن، ويتّكئ على طرف القاطع الخشبيّ، عيناه الخامدتان تحدّقان من وراء نظّارته الفحمية إلى سواد الدنيا من حوله... هذه الدنيا التي تحوّلتْ ـ كما يقول ـ إلى محض أصوات وروائح، وعلى وجهه المحروق ما يُشبه الإحساسَ بالنشوة، حتى وهو يحكي لي عن تجربة عماه.

«أستاذ وجدي، أنا كنتُ أمتلك عينيْن بصفاءِ عينيْ ديكٍ في شبابه. وكنتُ أعمل معلّمًا في مدرسة في إحدى ضواحي العاصمة، يهابني تلاميذي، ويحترمني زملائي المعلّمون. راح الأستاذ مؤمن، جاء الأستاذ مؤمن! وكنتُ أعيش قانعًا وسعيدًا مع زوجتي.» قلت له إنّني ظننتُه أعمى من الولادة. قال لا. العمى جاءه وهو في نحو الثلاثين من عمره. لذلك هو مازال يحمل في رأسه طيفَ الألوان، وأشكالَ الكائنات، وملامحَ الوجوه التي عرفها وعايشها ـ زوجته وأقاربه، وبعض زملائه المعلّمين ـ وإنْ بدأتْ هذه المعالمُ تبهتْ شيئًا فشيئًا، مثلما يَبهت أيُّ شيء في الذاكرة عندما يغيب عن النظر. سألتُه إنْ كان تمرّض. قال لا، إنّما أصيب بالخبل: «فعندما اعتدى الأميركانُ علينا، وخرّبوا محطّات الطاقة ومصافي النفط، غدت مادةُ البنزين شحيحةً جدًا. أنت تعرف هذا. وقتَها أخذ المتعاملون في السوق السوداء يبيعون هذه المادة بأسعار عالية.»

قلتُ له إنّني أتذكّر ما حدث.

ـ في هذا الوقت سمعتُ أنّ بعض الناس يستخرجون المقادير القليلة من البنزين التي تركد في قعر قناني الغاز الفارغة، ويبيعون ما يتجمّع منه. عملية لا تخلو من أخطار قاتلة. ولكنّ الربح الذي يأتي من ورائها كان مغريًا!

ـ فدفعك الطمعُ إلى أن تفعل مثلهم.

ـ في البداية سار كلّ شيء بشكل ممتاز. لم أجد أيّة صعوبة في فتح القناني. ولكنْ في أحد الأيام، بينما كنتُ أحاول فتح واحدة، استعصت عليّ. ألححتُ عليها...

ـ فانفجرتْ في وجهك!

ـ بالضبط، أستاذ وجدي.

ـ وهكذا فقدتَ بصرك.

ـ وفقدتُ امرأتي أيضًا، إذ كانت تقف بجواري تساعدني.

قلت له إنّ مثل هذه الحوادث تقع لأيّ إنسان. غير أنّه كان يرى أنّ ما حصل كان نتيجةً متوقعةً لسلسلة من المصادفات، وكان هو الأداةَ التي نفّذت المشهدَ الذروةَ! قال ذلك وضحك. وأدهشني ألاّ أُحسّ، في ضحكة الأعمى، بأيّ شعور بالمرارة؛ كأنّ ما جرى له كان قدرًا محتومًا. قلت له: «وهكذا اخترتَ أن تبيع الشاي!» قال إنّه في البداية قَصَد المقابر، يقرأ من الذاكرة سورًا من القرآن الكريم على أرواح الموتى، إذ إنّ ذوي الراحلين يتصدّقون بسخاء

---

* ـ روائيّ وقصّاص عراقيّ.

عندما يجدون أنفسَهم مايزالون يتنفّسون الهواء وسط ذلك الصمت الرهيب. لكنَّه فوجئ في الجمعة التالية أنّ المقابر سوقُ عملٍ يتقاسمه فريقٌ من عميان العاصمة: لكلّ أعمى مساحةٌ محدّدةٌ من الأرض، بما عليها من قبور، يَعْرفون ساكنيها وأسماءَ الأقارب الذين يجيئون لزيارتهم في أيام الجُمع والمناسبات الدينية. فراح هؤلاء العميان يسدّون عليه طريقَ الارتزاق ويشتمونه. قال: «أستاذ وجدي، أنت لا تعرف كم يغدو الأعمى عدوانيًا شريرًا إذا شعر أنك تزاحمه على شيء، أو تدوس له على طرف: فهو حقود ولجوج لا يغفر ولا ينسى!» سألتُه إنْ كان أصبح مثلهم، فقال معترفًا:

«إذا أردتَ الحقيقة نعم. أنا كنتُ متسامحًا في علاقاتي مع الآخرين عندما كنتُ أرى الدنيا. ولكنْ بعد أن انطفأت الأضواءُ وتساوت الألوانُ، غدوتُ إنسانًا كثيرَ الشكوك لا أثق بأحد. فهذه الظلمة التي تلفّك من كلّ جانب تجعلك تَشْعر أنّك معزولٌ ومحاصَر، تهدِّدك أخطارٌ لا تعرف شكلَها ولا مصدرَها، وبالتالي يتوجّب عليك أنّ تكون متأهّبًا في كلّ لحظة للدفاع عن نفسك. في حالتنا، أستاذ وجدي، فإنّ الشراسةَ، والشكَّ، واعتمادَ الحيلة والخداع، أحيانًا في التعامل مع المبْصرين أمثالكم، وسائلُ دفاع مشروعةٌ يقرُّها مجتمعُ العميان، باستثناء حالات شاذة قليلة!»

تأمّلته مذهولاً، وقلت له: «مؤمن، أنت ترعبني!» ضحك وقال: «لا، فنحن صديقان، وليس بيننا ما يَستوجب الريبةَ والعداء، لا سمح اللّه! أما إذا نازعْتَني على شيء، فليرحمْك اللّهُ من انتقامي!» سألتُه وماذا فعل بعد أن طرده العميانُ من المقابر؟ قال إنَّه انضم إلى إحدى فرق المنشدين، الذين يقرأون الآيات والأدعيةَ في مجالس الفاتحة ومجالس الذّكر، لكنَّه وجد العمل متعبًا ومهينًا. كانوا كلَّ يوم في مكان، يَتْبعون خطواتِ الموتى. وكانوا يتعرّضون إلى الإذلال على يد رئيس الفرقة الذي كان يستغلّهم، ومن أصحاب المجالس الذين كانوا يعاملونهم مثلَ مجموعةٍ من الشحاذين. قلتُ له: «وانتهيتَ أخيرًا إلى عملك هذا.» قال: «وجدتُ أنّ الإنسان يمكن أن يؤجِّل أيَّ شيء، لكنَّه لا يؤجِّل ما له صلةٌ بمعدته ومزاجه!» وأصاخ بائعُ الشاي السمعَ إلى الأصوات القادمة من ناحية دكّانه، ليطْمئنّ على ما يقوم به مساعدُه، ثم قال: «أستاذ وجدي، أنا رجل يثرثر كثيرًا! قلْ لي حين تَشْعر بالضجر.» قلتُ له إنّ كلامه يسلّيني، وأنا لا أستطيع أن أعمل ما لم يَرْجع التيارُ الكهربائيّ. قال مرتاحًا: «إذن سأروي لك حكايةَ علاقتي الجسدية مع صاحبتي الضريرة!»

حكاية بائع الشاي مع معشوقته العمياء

قال الأعمى يحكي لي عن علاقته الجسدية (كما يسمّيها) بصاحبته المكفوفة ـ أو بالأخرى قصة فجوره ـ إنَّه بعد مصرع زوجته في حادث انفجار قنينة الغاز بقي يعيش وحيدًا:

«أنتَ لا تَقْدر أن تتصوَّر كيف هي حياةُ الأعمى حين يكون وحيدًا! عندي أختٌ أكبر منِّي، أكلت الحربُ زوجَها، وعافتها تحاول أن تَعُول نفسَها وبنتًا صغيرةً. جئتُ بها وأسكنتُها معي، هي وابنتها. أختي هذه لم تلبث أن تعرّفتْ على نساء الجيران، وكانت بينهنّ بنتٌ عمياء، في حدود الخامسة والعشرين، بدأتْ تُكْثر من التردُّد علينا بسبب إحساسها بالعزلة. كانت تزورنا في المساء، وكنتُ أجدها في البيت عندما أرجع من عملي في الدكان كأنَّها تنتظرني. وبسبب عاهتنا المشتركة نشأتْ بيننا علاقةُ مودة. كنت ماأزال جديدًا تقريبًا على عالم المكفوفين، ويهمّني كثيرًا أن أعرف كيف تتصرَّف من أجل أن أهتدي إلى سبل التعايش مع هذا الليل الأبديّ الذي يطوِّقني. كنتُ أحتفظ بيدها الدافئة الرخوة في كفّي ونحن نتكلّم، وكان ملمسُ لحم يدها الناعم يجعلني أُحسّ بالنشوة. مثلُ هذا الإحساس المذهل لم يكن يراودني عندما كنتُ أصافح يدَ امرأةٍ قبل إصابتي بالعمى. كانت نظراتُ المرأة نفسها، ونظراتُ الآخرين، تحاصرني وتربك مشاعري. كانت العمياء تترك يدَها تنام سعيدةً في راحة يدي، وكنتُ أضغط عليها بحنان. تستطيع أن تقول، أستاذ وجدي، إنَّنا كنّا نتضاجع عن طريق اليدين!»

بدا وجهُ الأعمى شيطانيًا في ضوء الشمعة داخل المحلّ، ونثار الضوء المتساقط عليه من مصابيح السيارات المتخاطفة في الشارع. قلتُ له مندهشًا إنَّني ما كنتُ أتصوَّر أنَّه مهووس بالجنس إلى هذا الحدّ، والغريب أنّ اسمه مؤمن! «كان ينبغي أن يسمُّوك فاسق!» ضحك مسرورًا وتابع سرد حكايته. قال:

«بعد عدد من اللقاءات والتخاطب سرًا بالأنامل، تحت غطاءٍ من كلمات بريئة نثرثر بها على مسامع أختي وابنتها الصغيرة، طلبتُ منها، همسًا، أن نلتقي في البيت في النهار، وحدنا، في أول يوم جمعة. همستْ مترددّةً، وهي تُنْصت إلى حركة أختي المنشغلةِ عنَّا بشؤون البيت: 'وأختُكَ وابنتُها؟' قلتُ لها لا عليكِ: سوف أجعل البيتَ خاليًا منهما، من أجل عينيك أنتِ! وضحكنا لهذه النكتة!»

وضحك متذكّرًا ما قاله وقتَها للعمياء. سألتُه: «وهل أخليتَ البيتَ من أجل عينيها؟» قال: «في مساء يوم الخميس أعطيتُ أختي مقدارًا من النقود، واقترحتُ عليها أن تأخذ ابنتها وتذهبَ لزيارة قبور الأولياء والصالحين، صباحَ يوم الجمعة، وأن تقضي النهارَ كلَّه هناك في الدعاء على روح الشهيد زوجِها، وأن تدعو اللّه أن يحفظنا من بلاوي الحروب وعذاباتها!» قلتُ له: «يالك من ماكر!» قال: «بعد أن غادرتْ أختي البيت، صباحَ يوم الجمعة، وابنتُها معها، دخلتْ جارتي العمياء. وبدون أن أضيِّع اللحظات الثمينة في مقدماتٍ لا ضرورة لها، نَزعتُ ثيابَها عنها، وتعرّيتُ أنا أيضًا، وبدأنا حفلةَ جنسٍ مجنونةً مسرحُها البيتُ كلُّه، بكلّ حجراتها وزواياه. كانت الملعونة تَهْرب منِّي وتختبئ في الأركان، أو وراء قطع الأثاث، في داخل الغرف، وأنا أهرول وراءها مشتعلاً بالرغبة،

تَلْطمني الجدرانُ من كلّ جانب! لكنَّها ما كانت تطيل لحظاتِ عذابي، بل تساعدني في العثور عليها من أجل أن أفترسها! أستاذ وجدي، أنا مارستُ الجنس كثيرًا، قبل الزواج وبعده، ولكنْ صدِّقْني إنْ قلتُ لك انْ ليس هناك في الدنيا ما هو أروعُ من ممارسة العميان للجنس. حتى إنَّني في لحظات الذروة، ما كنتُ أحسُّ كثيرًا بالأسف على نفسي لأنَّني غدوتُ أعمى!» قلتُ له إنَّه يبالغ طبعًا. قال: «حقّك، أستاذ! أنتَ لم تجرِّبْ هذا الانفجارَ المهولَ والرائعَ للأحاسيس تصطخب في جسديْن يلتهبان بالرغبة، في التحام حيوانيٍّ لا يعرقل هيجانَه أيُّ مشهد خارجيّ. كلُّ خلية في جسديْنا المتوقديْن، كلُّ ذرة في لحمنا المرتعش، تمارس الجنسَ محمومة!» أتذكّر أنَّني قلتُ له: «أنت تجعل هذا التوحُّدَ الإنسانيَّ النبيل، هذا التزاوجَ الروحيَّ، والتناغم الوجدانيّ والجسديّ العذب والشفاف، بين رجل وامرأة، يبدو كأنَّه عمل بهيميّ!» قال: «هو كذلك، أستاذ وجدي، هو ذلك... إذا جرَّدتَه من كلِّ ما يحيط به من خرط الكلام!» قلتُ له إنّ كلامه غريب، وسألته إنْ كان مايزال يمارس الجنسَ مع تلك البنت. قال: «على فترات متباعدة.» هل ملَّها؟ «لا. لكنَّها ـ مثل أية امرأة تظنّ أنَّها روَّضَتْك بسحر جسدها الشيطانيّ ـ أصبحتْ تبالغ في توقُّعاتها. الآنسة تقول إنّ ما نفعله يخالف الشرعَ ـ كأنَّها اكتشفتْ هذه الحقيقة الآن ـ وإنّ علينا أن نتزوَّج! تقول إنّ أخاها سمع بعضَ التلميحات من الجيران عنها وعنّي، وإنَّه هَدَّد بقتلنا، نحن الاثنين، إذا تحقّق من صحة الشائعات. تصوَّرْ، أستاذ وجدي، حياتي تنتهي بسبب علاقة جسدية عابرة، على يد شاب مخبول يعتقد أنَّه يدافع عن عرضه الأعمى!»

وضحك بائعُ الشاي مستهينًا بهذا التهديد، الذي ربما كان جديًا. قلتُ له إنّ المرأة قد تكون صادقة. قال: «أستاذ، أنت لا تعرف بعد شيئًا عن مكر النساء! أنا سألتُ عن أخيها، وعرفتُ أنَّه شاب عاطل مستهتر، يقضي نهارَه يتحرَّش بنسوان المحلة، أو يترصّد المراهقات عند أبواب المدارس.» «لكنَّ مثل هذا المخلوق يكون أكثر خطرًا عندما يَسمع أنّ أحدًا تجاوز شرفه.» قال إنَّني أحاول أن أخيفه، وإنّ الحكاية كلّها كذبة خائبة من العمياء: تريد أن تَضْغط عليه، كي يُقْدم على حماقة الزواج منها! سألتُه وماذا قال لها ليخلِّص نفسَه من هذه الورطة؟ «نصحتُها ألاّ تُفْسد علينا مباهجَ علاقتنا! قلتُ لها دعينا نواصلْ رحلات الاستكشاف العذبة في مجاهل جسديْنا، المعبَّأيْن بصنوف الخبايا النادرة التي يَعْجز المُبْصرون عن الوصول لها!» قلتُ له إنّ عليه، مع ذلك، أن يكون محتاطًا؛ فمَنْ يدري ربما نفَّذَ أخو العمياء تهديدَه وقَتَلَه! فاعترف أنَّ له جارًا مدرّسًا متقاعدًا قال له الكلامَ نفسَه «لكنَّه إنسان كثير الوساوس، مثلك!»

...

ومثلما انطفأت المصابيحُ فجأةً، اشتعلتْ على جانبي الشارع، وفي المخازن والدكاكين، وامتلأ الهواءُ بلغط الأجهزة وأصواتِ الأغاني والموسيقى، وتوهّجت الأضواءُ في داخل المحل. قلتُ للأعمى، وأنا أَنْفخ على لهب الشمعة، إنّ الكهرباء عادت. قال: «شفت! قصدي، سمعت! أخلّيك ترجع لشغلك.» ومدّ يده في الهواء، فوضعتُ في كفّه إناءَ الشاي الفارغ. قال قبل أن ينصرف: «في المرة القادمة، عندما تنقطع الكهرباء في المساء، سوف أضيء ليلَكَ بحكاية جاري المدرِّس وزوجتِه الحسناء ـ كما تقول عنها أختي.» ضحكتُ؛ فهذا الأعمى يحب أن يزخرف عباراته بكلمات مشرقة. سألتُه وهل لجاره حكاية؟ قال: «لكلّ واحد منّا حكاية، أستاذ وجدي. لكلّ واحد حكاية!»

...

لكنّ بائع الشاي لم يروِ لي حكايةَ جاره، ولم يَبُحْ لي بعد ذلك بأيّ سرّ من أسراره. إذ إنّ علاقة الألفة بيننا انقلبتْ إلى نفور عندما تعرّفتُ على السيّدة رجاء وأُغرمتُ بها، وراح هو يتجسّس على حياتي، ويتعمّد جرحي بتلميحاته القذرة. وصرتُ أمقت رؤيةَ وجهه المحروق، وأتمنَّى موتَه من كلّ قلبي.

ولكنْ ما الذي جعله ينقلب عليَّ هكذا؟

هذا ما يحيِّرني!

بغداد